مدينة جبيل

وعلاقتها بمصر

جُبَيْل الحالية بلدة صغيرة على نحو عشرين ميلاً من مدينة بيروت شمالاً. ثبت من الآثار التي وجدت فيها في العام الماضي انها كانت عاصمة مملكة وكان ملوكها اتصال تام بملوك مصر من عهد الملك امنمحات الثالث من ملوك الدولة الثانية عشرة المصرية اي منذ اكثر من ثلاثة آلاف وسبعمائة سنة كما ابنا في مقتطف دسمبر الماضي صفحة ٣٨٧. ثم ضعف امرها رويداً رويداً وخضع ولاتها لملوك مصر كما يتضح من صحائف تل العمرنة التي وصفناها حينما كشفت كما ترى في المجلدين السادس عشر والسابع عشر من المقتطف. وهذه الصحائف قطع من الخزف مكتوبة نقشاً بالقلم السفيني البابلي بعضها كبير يبلغ صفحة من المقتطف وبعضها اقراص صغيرة يبلغ طول القرص منها ستة سنتمترات في خمسة عرضاً واكثرها بين بين والظاهر ان الكتابة السفينية كانت اللغة الرسمية في ذلك العصر كما كانت الفرنسوية في اوربا في القرن الماضي. وقد رأينا ان ننشر صورة صحيفة من هذه الصحائف من وجهيها وننشر ترجمتها لاظهار ما وصلت اليه حال جبيل حينئذٍ وكيف كان الولاة

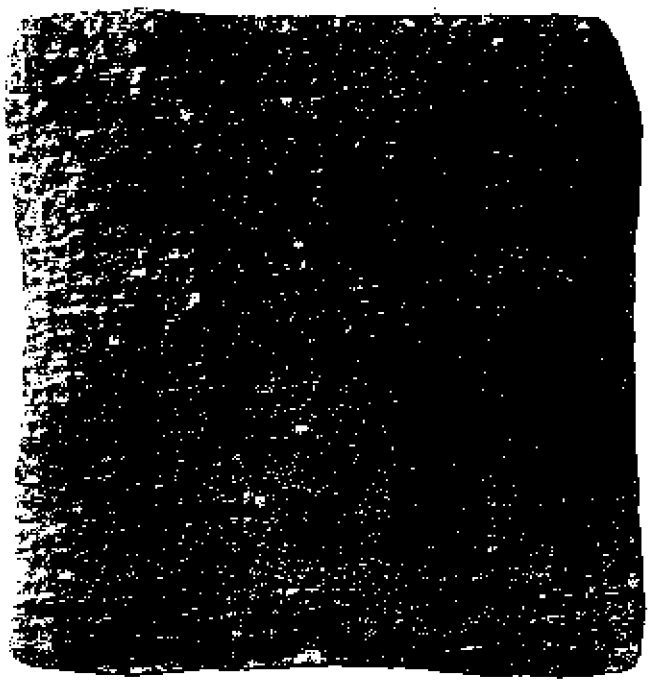

يخاطبون الملوك . والرسالة من حاكم جبيل واسمهُ رب ادو[١] الى ملك مصر ولعلهُ الملك اخناتن الذي كثر الكلام عليهِ في العام الماضي.

« هكذا قال رب ادو لسيد العالم وملكه الملك العظيم ملك العالم لتؤيّد بملة جبيل[٢] الملك مولاي . سبع مرات وسبع مرات اسجد امام قدمي مولاي وشمسي

« ان مدينة جبيل التي كانت من عهد قديم جدًّا جارية امينة من جواري ملك مصر وسلفائهِ قد ضاعت الآن لان الملك لم يعبأ بسلامتها . حبذا لو اهتمَّ بالذود عمَّا كان لبيت ابيهِ .

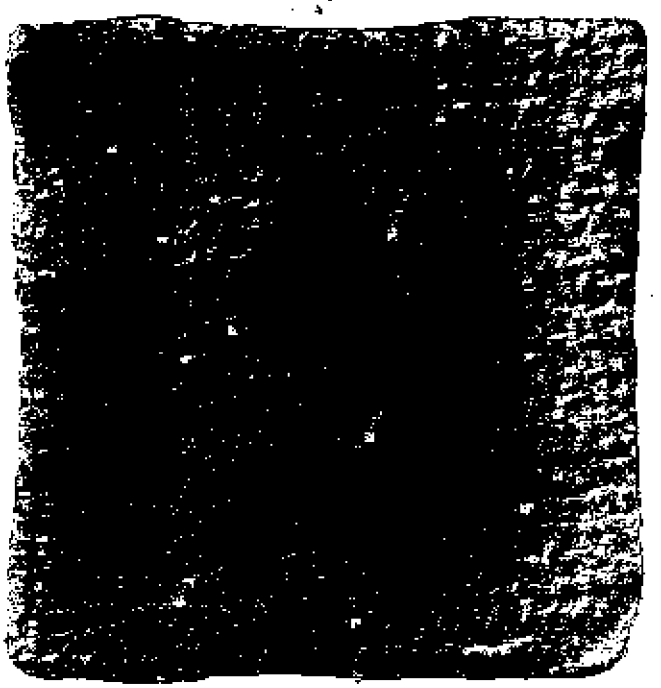

ان اهل البلاد قد خلعوا الطاعة فلا يصلحون ان يكونوا خداماً للملك . وعداوة العصاة شديدة فقد سمحت الالهة ان يضل ابناؤنا وبناتنا فذهبوا الى بلاد برموتا . واجاز سكان مدن الجبال ومدن الحدود للعصاة ولم يبقَ[٣] على ولاء الملك الاَّ مدينة جبيل ومدينتان اخريان في جوارها . ثم اجتاح عبد اشرتا احدها المسماة شفاتا واشار على سكان المدينة الثانية ان يقتلوا حاكمهم ويخلعوا الطاعة مثلهُ ففعلوا وحذوا حذو العصاة . وارسل الى الجنود في بيت نئيب قائلاً اجتمعوا معاً ولنزحف على جبيل ولنحتلَّ البلاد التي

(١) ادو بالبابلية وهدد بالسريانية واذوذس باليونانية يقال انه اسم الاله وماد او رمود

(٢) اي سيدة جبيل وهي بالبابلية بلتو (٣) المظنون انه صاحب مدينة صور ومعنى الكلمة عبد عشتروت اي الزهرة الذي ذكره وسينوسرتي رده على ايوزس الكتاب الاول الفصل ١٨

غرّ فيها وتقيم عليها الولاة . فشقت البلاد كلها عصا الطاعة ولم يبقَ فيها احد على الولاء واضطر ابناؤنا وبناتنا ان يخضعوا للعصاة وسينتشر العصيان في البلاد كلها ما لم ينهض الملك لحماية بلاده وماذا تكون حالة جبيل حينئذٍ لقد تحالف العصاة علينا ويخشى رب ادًّا ان لا يجد من ينقذهُ منهم فقد سُجن في جبيل كعصفور في قفص. لقد أطلعَ ملك مصر على واقعة الحال لكن الملك لم يلتفت الى كلامهِ . اذا خامر قلب الملك شك في الحالة التي وصلت اليها جبيل فليسأل امن ابا الذي يمرقها وقد رآها . جبذا لو اصغى الملك الى كلام خادمهِ وانقذ حياتهُ فانهُ ان فعل حفظ مدينتهُ الباقية على ولائهِ . الملك رحيم. ورب ادًّا يتضرّع نهاراً وليلاً ليبقى مشمولاً بعنايتهِ والاّ فلا يعلم ما يحل بهِ »

وبعد كتابة ما تقدم بلغنا انهُ كشفت في جبيل آثار اخرى يستدل منها على ان المصريين كانوا يرتادونها للتجارة وجلب الخشب والقار والقطران في عهد الدول المصرية الثلاث الاولى اي منذ اكثر من ستة آلاف سنة

ثم اطلعنا في جريدة البشير على ترجمة خطبة في هذا الموضوع للمسيو مونته الفرنسوي الذي تولى الحفر هناك قال فيها

ان مدنية ممتازة تضاهي المدنية المصرية والكلدانية قد ازدهرت في جبيل . على انهُ لم يكن لها ذكر في غير الكتاب المقدس والكتابات المصرية وبعض الاقاصيص. اما الآن فان الآثار التي اكتشفت حديثاً تتيح لنا الكلام في هذا الموضوع . ومن بطن الارض تخرج اسماء جديدة ترسل نوراً ساطعاً على بعض الحوادث التاريخية فتزيدها وضوحاً وتنبيء بوجود فن خاص بهذه الامصار . وقد حفظ المؤرخ لوقيان رواية تقليدية تقادم عهدها يرجح من مطالعتها ان اسرار ادونس ليست مختلفة عن اسرار اوزيريس

وينبيء ما اكتشف الى الآن ان تاريخ جبيل القديم لهُ علاقة كبرى بتاريخ مصر وان المبادلات الاقتصادية كانت تربط هذا القطر بتلك المدينة لان فراعنة مصر كانوا يستوردون من جبيل وجوارها ما كانت ارضهم عاجزة عن تقديمهِ من الاخشاب المختلفة والمواد الضرورية لهم ، من ذلك خشب الصنوبر والخرنوب والارز والجوز والسنديان . وتدل الكتابات على ان الفراعنة قد جردوا الحملات منذ اربعة آلاف

سنة قبل المسيح للحصول على ما يلزمهم من هذه الاصناف لانهم كانوا يستخدمون هذا النوع من الخشب لصنع الفلائك المقدسة وتوابيت الكهنة ولاقامة سوار امام الهياكل تخفق عليها راية الملوك من يوم استطاعوا الاستغناء عن خشب الاقاقية

ثم ان فراعنة مصر كانوا بحاجة الى سفن كبيرة صلبة تمكنهم من اقتحام اخطار البحور لاستجلاب ما ينقصهم وخصوصاً ما كانوا يحنطونهُ بهِ اكلهم وعبادة آلهتهم . فلذا كان لا بد لسفنهم من الوصول الى باب المندب لابتياع البخور الذي لا يوجد منهُ الاَّ في تلك البلدان . وكانوا يقصدون الى سورية استيراداً للخشب وابتياعاً للسفن القوية التي كان اهل جبيل قد امتازوا بصنعها . وقد ذكر الكتاب المقدس ان بيبلوس تفوقت على سواها من المدن في هذا الامر

وكان المصريون يحتاجون ايضاً الى القطران والقير فالاول لحفظ المومياء والثاني لتحنيط الاجسام . وكانوا يعتقدون ان القير يجعل الأجسام الهية غير قابلة الفساد ولذا كانوا يطلون بهِ دمى الملوك انفسهم كما يرى في تمثالي توت عنخ امن المنصوبين على قبره . وهكذا طلوا بالقير وبالطيوب الثمينة تمثال اوزيريس . ومعلوم من النصوص ان القير كان يؤخذ من جبيل وكان يأتيها من بلاد ما بين النهرين

ويظن مما نعرفهُ ان حياة مصر الاقتصادية كانت تؤثر فيها كل التأثير علائقها بمدينة جبيل ويتضح لنا ان مصر من اول تاريخها قد عنيت بعلائقها مع جارتها فينيقية وخصوصاً جبيل . وترتقي الحملات الى عهد السلالة المصرية الثانية وقد توجه سنفرو من السلالة الرابعة الى جبيل واخذ منها سفينتين طول الواحدة منهما مائة ذراع مصنوعتين من خشب الصنوبر كما يتضح من كتابة نقشت على مسلة موجودة في متحف توريتو

وقد وجد في اساسات الهيكل المشيد « لربة جبيل » اشياء يرجع تاريخها الى السلالات المصرية الثلاث الاولى لان اسماء ميكارينوس (باني احد الاهرام الكبيرة) وباني الاول وباني الثاني ذكرت على الاواني التي ظهرت في هذه الحفريات ومنها هدايا ارسلها الفراعنة الى ملوك جبيل

اما العلائق بين مصر وجبيل فكانت على انواع : منها دينية فان المصريين بنوا هيكلاً لالهة جبيل في المدينة نفسها كما يتضح من الآثار التي اكتشفت وهيئة

النقوش والتماثيل وان كانت مشوهة تدل دلالة صريحة على ان عهد هذا البناء يرتقي الى السلالة الرابعة بل الى عهد اسبق . ومن ذلك يظهر ايضاً ان المصريين لم يسموا الى اكراه البلاد التي كانوا يخضعونها الى انتحال دياناتهم

وقد بانت كتابة محفورة على احد الاواني المقدمة الى الهيكل المرقوم جاء فيها ما تعريبهُ : « من اوناس المحبوب من الاله الشمس الموجود على بحيرة فرعون » ومعنى ذلك انهُ محبوب من الاله المحلي اله جبيل واوناس يدعي انهُ محبوب من هذا الاله المحلي كما هو محبوب من الشمس الهة مصر العليا التي يمثلها هو . ويتضح من ذلك انهُ صاحب السيادة على جبيل كما انهُ سلطان مصر

اما بابي الاول فانهُ طمح الى اكثر من ذلك اذ جعل نفسهُ واله جبيل واحداً لان ملوك المدينة كانوا يعتبرون كأنهم الاله حامي المدينة المتجسد وصورة امون الحية. وعلى تماثيلهم رسوم تشير الى السلطة السامية. وقد يستدل على مقدار هذه السيادة بما اكتشف من الآثار في هيكل قريب من الاول جدد بناؤهُ مراراً الى عهد الرومانيين وهو هيكل عشتروت الذي ذكرهُ لوقيان . ولم يعثر الا على بلاط هذا الهيكل اما وجد تحت البلاط اشياء كثيرة تبين تاريخ بنائهِ وقد يكون شيد ما بين عهدي السلالة السادسة والسلالة الثانية عشرة اي بين القرن الخامس والعشرين والقرن التاسع عشر قبل المسيح انتهى

وكتب المسيو مونته ايضاً ان الحفلات الدينية التي كانت تقام لادونس في هيكل عشتروت (الزهرة) بجبيل في عهد الرومانيين كان يشترك فيها جماهير كثيرة جداً لاتساع الهيكل . وقال لوقيان « ان امبراطرة الرومان زادوا في زخرفة هذا الهيكل كما فعلوا في كثير من المدائن السورية ولكن مبانيهم هُدمت لتبنى بحجارتها مبانٍ اخرى »

ولما كشفت انقاض هذا الهيكل استعان المسيو مونته بالبحارة الفرنسوية على نبش بعض الاعمدة ونصبها ثانية كما ترى في الصفحة السابقة فظهرت عظمتها الغابرة تخجيلاً لابناء الذين شادوا هذا الهيكل لانهُ مضى عليهم الآن نحو اثني عشرة سنة ولم يستطيعوا ان يقيموا بناء سنهُ وما يصدق عليهم يصدق على كل مجاوريهم